المرأة والشعر

لماذا لم تظهر الأديبة العربية في تاريخنا بالقدر الذي يتجه لها استعدادها أصالة لفن القول؟

قد يُجاب بأن عزل المرأة العربية عن الحياة العامة قبل الحديث هي التي حالت دون ظهورها، ولكن هذا القول إن جاز أن يصدق على عصور العزلة فليس يصدق بحال على فترة طويلة من أزهى عصور تاريخنا الأدبي منذ قديم الجاهلية المعروفة لنا إلى منتصف القرن الثاني للهجرة؛ حيث بدأت محنة العزلة .فالمرأة العربية في الجاهلية لم تكن قط كما يتصور الكثير منا خطأ بمعزل عن الحياة العامة، ولست أعرف فيما قرأت من تاريخ العرب قبل الإسلام حادثًا جليلًا لم تشارك فيه المرأة، وكذلك الأمر في العصر الإسلامي الأول ليس صحيحًا ما يظنه أكثرنا من أن الحجاب الإسلامي قد عزل المرأة عن الحياة العامة بل الصحيح الذي يشهد به التاريخ أنها كانت هناك في كل مجال حيوي عام المواقع .

والمرأة بطبيعتها تجيد الرثاء وتستثار مشاعرها المرهفة أمام صدمة الموت لكن ماذا عن غير الرثاء

هنا تلقانا عقدة من أخطر العقد في هذه القضية فمؤرخو أدبنا قد سيطرت عليهم فكرة خاطئة صورت لهم أن الشاعرة العربية لا تحسن غير الرثاء، ومن ثم حددوا هذا المجال الفني للشاعرة بالرثاء وحده فلم يهتموا بغير قصائدها .أما غير الرثاء فلا اهتمام به ولا التفات وبحسبكم شاهدًا دليلًا أن ابن سلام لم يجد مكانًا للشاعرة ليلى الأخيلية في شعراء طبقاته العشرين الإسلاميين مع أنه قال في ترجمة النابغة الجعدي وهو عنده من شعراء الطبقة الثالثة " إن ليلى الأخيلية غلبت عليهم."

وسكينة بنت الحسين قبل أن يعترف بها مؤرخو الأدب مع أن تراثنا الأدبي يشهد بأن إمامة النقد عقدت لها في عصرها فإليها كان يحتكم أكبر شعراء العصر، وعندها كان رواة الشعر يلتمسون الرأي فيما اختلفوا فيه من منازل أصحابهم وأحكامهم النقدية تتمثل لنا في مركز القيادة .

إن أسبابًا اجتماعية قاهرة قد تحكمت في وضع الأديبة العربية فحركة الجمع والتدوين لتراثنا ثم تاريخه ونقده قد نشطت في مستهل العصر العباسي على أيدي رجال عاشوا بعقلية مجتمع رأى المرأة معنويًا، وعزلها عن الحياة العامة، ثم لم يكن لها من تصورهم أن تتحدث عن عاطفتها، وتكشف عن أسرار ذاتها فلا عجب أن أهدروا شعرها في غير الرثاء، الذي حصروا فيه مجالها الفني، ورووا قصائد الشعراء الذين تولوا الحديث عن عواطف الأنثي، وكانوا هم الذين صوروا لنا عالمها النفسي كما فعل امرؤ القيس .

والإماء هن اللواتي استطعن تحقيق الوجود الفني للمرأة في عصور وأدها عاطفيًا فقد كن عنصرًا من أهم العناصر في ازدهار الأدب، وعرف تراثنا عددًا غير قليل منهن ذوات أصالة فنية واقتدار أدبي، وإن ألقى بهن مؤرخو أدبنا ولا بد بمَنْ يريد معرفة الوجود الفني للأديبة العربية أن يستخلص تراثها المبعثر في شتى المصادر في ماضي تاريخها الأدبي .

أما عن الشاعرات المعاصرات بعد أن نالت المرأة حظًا من الحرية والانفتاح الفكري والانطلاق والبحث عن الثقافة نذكر على سبيل المثال لا الحصر نماذج منهن.

شاعرة الطليعة في فجر البعث العربي استطاعت عائشة عصمت تيمور أن تثبت وجودها الأدبي فسجلت تحرر الأديبة العربية من الوأد العاطفي من وراء حجاب، واحتالت لهذا التحرر بأن غنت أشواقها بلسان الرجل غير

أنها لم تستطع أن تحقق وجودها الثوري، وقد فرضت بيئتها الخاصة ألا تشتغل بقضايا الأمة إلا في نطاق محدود ببلاط القصر السلطاني الخاص وسراي الخديو.

وأما جرأة شاعرة الطليعة على التعبير عن أشواقها ومواجدها فقد كانت إيذانًا ببدء التحرر من الوأد الملتوي والكبت العاطفي، وهي في هذا تعد كما قلنا نقطة الانطلاق في اتجاه واضح في الشعر النسوي الحديث .

في جيل أمهاتنا انطلق صوت أم نزار الملائكة من وراء حجاب معلنًا عن الوجود الثوري للمرأة العربية في أغلال حجابها وقيود عزلتها ومسجلًا انطلاقها الوجداني عبر الأسوار إلى الأفق القومي العام مناضلة بشعرها في قضايا العرب الكبري فكانت هادية الجيل وأم أشاعرة العصر .

وقد تربت في أحضانها نازك الملائكة التي بدأت تتألق في الأفق الأدبي منذ عام1947 م وقد كانت قضية فلسطين من أهم القضايا التي شغلت بالها، وهزت أعماقها، ولها قصائد عدة إحداها قاربت مائة بيت عدا نظمتها قبل أن تصل الفاجعة إلى ذروتها المشئومة فتزاوج فيها صوت الشاعرة بين يأس وأمل واختلط الرجاء بالقنوط .

ومن الشاعرات فدوى طوقان من فلسطين .

أما الشاعرة العربية المعاصرة فتخوض المعارك بكل طاقاتها الشعرية، وإن كان من شاعراتنا من قصدن إلى الموعظة والاعتبار مباشرة فإن منهن قلة لم تلبس زى الخنوع، وإنما كان مناها أن ترجع عن وقع هذه المآسي البشرية على حسها المرهف .

إن كل معاناة ذاتية لشاعرة العصر نازك الملائكة هي من هذا الأفق العالي الذي تصيره لها التجربة الفردية تجربة إنسانية مشتركة مسجلة بهذا عمق ظاهرة الاندماج، التي أشرت إليها في مطلع حديثي عن الاتجاه الإنساني في الشعر النسوي المعاصر ومضيفة به قيمة جديدة للشعر العربي، الذي طالما شكونا اهتمامه البالغ بمظاهر الأشياء وانفعاله بقريب المشاعر.

وتأتي نازك ومعها عدد من شعراء العصر وشاعراته فتجاور بعد أبعاد الطول والعرض إلى العمق الموغل في عوالم النفس ومجالي الروح ودنا الوجدان على نحو لا أذكر أن العربية قد عرفته في أكثر مشهوري شعرائنا الماضين إلا استشراقًا ومحالة حتى لقد ارتاب المرتابون في قدرتها على أدلة مثل تلك الأسرار المستكنة في طوايا الذات ومساره النفسي والمعاني الوجدانية الزمنية، التي تقوت من المصطلح العجمي والدلالة الشائعة ونتجاوز المشاعر القريبة البادية على السطح .

واسمحوا لي أخيرًا أن أجهر باعتزازي بأني واحدة في جيل تحرر استطاعت أن تقدم إلى الشعر العربي هذا الصنيع فتنبأت بشعرها وبدراستها لقضايا الشعر المعاصر .إن العربية قادرة بمرونتها وحيويتها على أن تستجيب لدعاء التطور وتلبي حاجة العصر، و أن تنفصل عن قديمها أو تثبت جذورها في أصالتها الضاربة في أعماق الزمن .

لقد كان للمرأة المسلمة مواقف في الأدب نضت جوانبه وزكت فنونه، ورقت مشاربه بما أثمرت قريحتها وأفرغه لبها من براعة ورجاحة وقوة عرضة قد استمدت وحي البلاغة وسحر البيان من حبيب قلبها وحظر سرائرها بعكس الرجل، الذي استمد وحي بلاغته من دلال المرأة وسحرها .

إن المرأة لها من دقة الحس وقوة العاطفة وبعد الخيال فوق ما للرجل فهي لا تبرح الدهر بين خاطر مؤثر ووجدان متأثر لا تكاد تسمع خبرًا أو تلمح منظرًا أو تطيف بها ذكرى حتى تنال ذلك من أعماق نفسها وأسارير وجهها وشئون عينيها .

ولا أعلم كيف غفل متأدبو الأندلس عن استقصاء شعر نسائهم والعناية بتقييده فهم يسمون ولادة بنت المستكفي غلية الأندلس، ويدعون حمدة بنت زيادة خنساء العرب، وهم مع ذلك لا يذكرون لكليهما إلا القليل المحدود من الشعر، الذي أثارته مناسبة فهل لم تأتِ خنساء المغرب بأكثر من بضعة عشر بيتًا في الشعر أكثرها مداعبات ومطارحات، وهل لم تأتِ إلى الأندلس بأكثر من عشرين بيتًا، بعضها منسوب لغيره أقوال، ولعل ذلك لأن أكثر الكتب التي وصلتنا من حياة الأندلس بعد سقوط ذلك البلد العظيم وألف في بلاد خفت فيها أدب المرأة عن منال الأقلام فلم يحفل كتابها بها .

الغيرة عند المرأة

الغيرة صفة ملازمة للمرأة لا تنفصل عنها، والغيرة المقصودة ليست غيرة المنافسة، ولكنها غيرة الجنس .. تغار المرأة من الأخرى من جمالها من من نسبها من مالها من ذكائها من حب الناس لها، من حديثها الجذاب .. وإن أنوثتها والذي يجعلها أكثر غيرة مثلا حينما يكون ذلك مع محبوبها .. أو أكثر مع زوجها .. مما يزيدها اشتغالًا.

ولكن هل كل النساء سواسية .. والحقيقة أنه بالتأكيد لا فالغيرة شهوة نفسية مثل كل الشهوات تستطيع المرأة بعقلها وكنين خلقها أن تسيطر على رغباتها..وأن تستخدم عقلها، ولكن هناك درجات لا يمكن السيطرة عليها مثل الاستفزاز للرجل الحليم ..كما أن درجات السيطرة ترجع إلى الطبيعة والذكاء، وكل أنثى بنفسها تعلم ما يمكن لها تحمله.

وللغيرة درجات قاتلة ومدمرة وربما كانت هي أكثر الأشياء دافعًا إلى جرائم النساء وانتقامهن بشراسة وعنف..

وربما كان تجاهل الرجل لطبيعة المرأة عاملًا من عوامل إثارة غيرتهم ودافعًا لقتل الرجال أو لنهاية الحياة الزوجية أو أن تكون المرأة نفسها ضحية للضياع النفسي.

والغيرة المقننة صفة جميلة تدفع المرأة أن تصبح أفضل وما حسن منها ينير الحياة الزوجية رونقًا وبهاءً ..

أما الغيرة التي هي الحقد فهي صفة إجرامية لا مجال لها هنا .

ربما كانت غيرة المرأة من أخطر الاختبارات في حياتها، ومن أكثر الأمور التي تظهر معركتها .. وربما دفعتها إلى الجريمة المباشرة .. فغيرتها من امرأة مثلها ربما دفعتها إلى الحقد عليها أو إيقاعها في شر أعمالها .. أو إشاعة الفاحشة عنها .. أو غير ذلك .. وربما قلدتها في أمور لا تتناسب مع دينها أو خلقها .

وبالطبع فهناك درجات من العقلانية في الغيرة .. ولكن حتى ولم يكن فاندفاعها في الجريمة أو التقليد الأعمى هو دليل الميل إلى ذلك ووجود النزعة الإجرامية لديها . وأن الدافع بسبب الغيرة عبارة عن نقطة الشرر .. ولكن الغريب أن المرأة ربما قتلت زوجها بسبب غيرتها عليه، ربما دمرت حياته ببطء بما تجلبه من إيقاعه في ديون أو مشاكل أو بسبب غيرتها من مجرد الابتسامة .. لفتاة أو لصديقة هي تعرفها.

وربما دفعت الغيرة المرأة إلى أن تدفع زوجها إلى الموت دون أن يشعر لتتخلص منه أو تقتله بنفسها في حالة زيادة الأعراض النفسية لديها أو لشدة الغيرة .. وهو أهون عليها من أن يعيش مجرد محب لفتاة أخرى .. وبهذا فالجوانب الإجرامية لدى المرأة مجهولة المعالم والأسباب . إلا من قريب منها ..